الباب الخامس

obeikandl.com

obeikandl.com

الاستعمار الثقافي، والغزو الفكري، والتبعية الحضارية

إنَّ ما حدث ويحدث من مُحاولات سَلْخ الأمة عن ماضيها، وعَزْلها عن واقعها، وتَهْميش دورها الحضاري،وإضعافها مستقبلاً تمهيدًا لتدميرها، لم يكن وليدَ هذه الأيَّام، إنَّما هو نتاج عقود من العمل الدَّؤوب، وحياكة المؤامرات، وزراعة الفِتَن والأشواك الضارَّة من عُمَلائهم، ربيبة الy.، الثقافيِّ، جنود الغزْو الفكري ودُعاة التَّبعية الحضاريَّة، فحملات دعاة التغريب المستمرَّة، التي أثبتَتْ خيبتَها فيما تدعو إليه من تقدُّمِنا الحضاري، أدَّت إلى تَهْميشنا حضاريًّا، وعلميًّا وثقافيًّا واجتماعيًّا، وتبَعِيَّتِنا للغرب وهذا هو الهدف الحقيقيُّ وإن ادَّعوا العكس، ونجحَتْ في اغترابنا في مُجتمع لم نَعُد نألفه، وواقع لم نعد نسيطر عليه، وما زالت تنادي بأنَّنا في حاجة إلى مزيد من التَّغريب؛ فلم نستورد ما يكفي من القِيَم والمبادئ، والأخلاق لنتقدَّم مثلهم، وما زالت ألسنتُهم وأقلامهم تلُوك العبارات الفجَّة المسمومة من أنَّ سببَ تخلُّفِنا هو الإسلام، مُنادين بمَزيد من التبعيَّة للغرْب المتقدِّم، والاستزادة من التخلُّص من تراثنا الفكريِّ والتاريخي، وأصالتنا الحضاريَّة، وديننا القويم؛ لنتقدَّم! فذريعة التقدُّم التي دعَوْا إليها وصاحُوا ونادَوْا بها، لِدَفْن ماضينا، وإهْمال أصالتنا، وسَحْق كرامتنا باعتبارنا الطَّائفة المهزومة فكريًّا وحضاريًّا، وثقافيًّا واجتماعيًّا في معركتنا مع الاستعمار في بدايات هذا القرن، التي بَهرنا بها المستعمر بأسلحته وتقنيته، وحضارته.

هذه الذريعة لَم تكن تستهدف تقدُّمَنا إنَّما هدفت وما زالت إلى نشر الغزو الفكريِّ، ورَبْطِنا بالتبعية للمحتل السابق وجلاَّد الأمس، وقتْل أصالتنا الحضاريَّة، فعن طريق غزْو العقول، وتشويه الأفكار وتشويش الوقائع والأحداث، ورَبْطِنا روحيًّا ومعنويًّا به هذه الفئة من العملاء الثقافيِّين والغُزاة الفكريِّين ودُعاة التبعيَّة، هم جنود لِمُحتل لم يُجْلَ عن أرضِنا ونفوسنا، وإعلامنا وتعليمنا واقتصادنا، لكلِّ دورة في الْهَدم والتخريب، أو التَّشويه والتشويش، أو الطَّمس والتدليس، ولكن لِمَ يربطوا نتاج أعمالِهم القذرة الخبيثة بالإسلام؟ أو يدَّعون أن الرجعيَّة ويقصدون الإسلام هي سبب التخلُّف؟!.

ويستعينون بكلِّ الأسلحة، ويستخدمون كلَّ الخدع، ويجرِّبون كل السُّبل في نشر أفكارهم وشنِّ الحرب على الإسلام، وتدمير كلِّ من يفضح عمالتهم، ويكشف عوراتهم الفكريَّة، أو يُعْلن أهدافهم الكامنة المسمومة.

الأوْغاد الذين يَدْعون إلى التَّبعية يتجاهَلون أن ينقلوا الصُّورة الكاملة لما يريدون منَّا أن نتَّبع، ويتغاضون عن أدَقِّ التفاصيل في العَرْض، كما يلتزمون بالكذب والتدليس على عَقْل السامع والقارئ، وبالتَّشويه والتزوير؛ لنصدِّق فعلاً أنَّ للغرب حضارةً فأين الحضارة؟.

إنَّهم يسلخوننا عن هويتنا: ما الهُوية إلاَّ إدراكنا الذَّاتي الواعي لماهيَّتِنا، وأسباب وجودنا وتاريخنا؛ لنعرف مَن نكون وماذا نريد، ماذا

كُنَّا وماذا أصبحنا، لِنَعرف ماذا سنصير، إنَّها ستعلِّمُنا الهوية ماذا نريد أن نكون.

هذه الهُوية لا تكتمل ملامِحُها إلاَّ بإدراك مراحل تاريخِنا وتطوُّرنا المختلفة، ودراسة منحنيات تاريخنا،ومنعطفاته، من نكبات، وسقطات، قبل البطولات والانتصارات؛ حتَّى نعرف متَى نكرِّرُ أخطاء الماضي؟ وماذا سيحدث حين نكرِّرُها لكن هذه الهُويَّة: استُهْدِفت منذ أجيال، منذ العهود الأولى للاستعمار، عندما رَغِب الاستعمارُ في أن يوظِّف إمكاناته لِفهمنا، ودراسة طبيعتنا وتقييمنا؛ ليعرف ماذا سيقبل عليه عند احتلالنا، وكيف يغيِّر ويتلاعَب بشخصياتنا لِنُصبح تابعين له، فبدأ بالمستشرقين في أجيالِهم الأولى بدراستنا ثُم مُحاولات النَّيْل منَّا وتدميرنا.

فالمستشرقون من أجيالهم الأخرى، بعد أن انتقلوا من مرحلة الدِّراسة إلى مرحلة الهجوم والاختراق والتشويه والتضليل، مُطْلِقين سهامهم المسمومة إلى قلْب الأُمَّة، مستهدِفين مثقَّفِيها وعلماءَها، والتطبيق الإسلامي للقانون والحدود لرعاية المجتمع، ويُحاولون سَلْخ المسلمين عن هويتهم التاريخية الحقيقية، وطمْس انتصاراته وملامح بطولاته، وتزويرَ ماضيه، وتشويهَ أحداثِه ودقائقِه، فيتلاعبون بالمناهج الدِّراسية، طامسين قصصَ التَّضحيات والبطولات، مُضَخِّمين الهزائم والهفوات

والزَّلات والأخطاء؛ من قبيل تشويه الشَّخصيات، وتزوير الأحداث في ذِهْن المتلقِّي؛ السامع، أو القارئ.

إنَّهم يعرفون أن الإسلام يغرس ويُرَبِّي وينمِّي روح التحدِّي والمنافسة، ويزرع أملَ النَّصْر والتفوُّق، فهم يُدَمِّرون النماذج والمثُل، بإعدام تاريخِنا وتشويهه وتضليله واستبدالِه بتاريخٍ مزوَّر مدسوس مصنَّع في الغرب؛ لإحباطنا عن استعادته، وربطنا بهم وإخضاعنا لِهم إنهم يرمون إلى تدمير أخلاق الإسلام وآدابه، واجتماعيَّاته، وحُدوده وقوانينه وعباداته، بتنفير الفرد والمُجتمع منها؛ لِيَسهل عزْلُها عن أرواح الناس، وقتْلِها تطبيقًا وفكرًا وعبادة.

فهل الإسلام فعلاً هو المعوِّق للتقدُّم والحضارة والرُّقي؟ كما يدَّعون؟ لا؛ فشَواهد التاريخ تشهد بكذبهم، وتفضح زورَهم، وتكشف عمالتهم، وتصيح بخيانتهم.

الغزو الفكري

يقول الحق سبحانه عن الكفَّار عمومًا: {وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا} ويقول عن كفرة أهل الكتاب خصوصًا: {وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى} فأخبر سبحانه أنَّ سُنته القدرية الباقية التي لا تتخلَّف إلى قيام الساعة عداوةُ الكفار لهذا الدِّين ولأتباعه، ولن تزول هذه العداوةُ حتى ينسلخ المسلمون من دِينهم، فالكفَّار على اختلاف مشاربهم جادُّون

في العمل على طمْس هذا الدِّين لو استطاعوا؛ {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ {وقد جرَّبوا غزوَ بلاد المسلمين بالجيوش الجرَّارة، فأدركوا أنها لا تُحقِّق لهم ما يريدون، حتى لو احتلُّوا بلادَ المسلمين فترة من الزمن طُردوا منها شرَّ طردة في نهاية المطاف، حتى حينما يجازف قائدٌ أرعن من قادة الصليبية باحتلال بلاد المسلمين تكون خسائرُه أكثرَ من مكاسبه، فدمَّر بمجازفته قوةَ بلاده الاقتصادية والسياسية، ومكانتها العالمية.

أمام هذه الحقيقة، لجأ الغربُ إلى غزو آخرَ أقلَّ تكلفة، وأكثر تأثيرًا، وهو الغزو الفكري لبلاد المسلمين، فعمل جاهداً على تغيير قناعات بعض المسلمين بطرق متعدِّدة،عن طريق الكلمة والمؤتمر،والكتاب والصحيفة، والقناة والفيلم، وعن طريق التعليم عبرَ البعثات الدراسيَّة لبلاد الغرْب، أو فتْح مدارس وجامعات في بعض البلاد الإسلامية لتخرِّج طلاَّبًا وطالبات يحملون أفكارَه وأهم وسيلة للغزو الفكري في عصرْنا وسائلُ الإعلام، فجعل الغرب مَيْدانَ المعركة بعضَ وسائل الإعلام، فنقل المعركة من الاعتداء على الأموال والأبدان وقتْلها إلى محاولة تغيير العقول وغزوها، وتحويل ولائها، فأعظم غزوٍ يمارسه عبرَ وسائل الإعلام المختلفة من صحف ومجلاَّت، وقنوات ومواقع إنترنت.

فقام الغربُ بإنشاء قنواتٍ ومواقعَ إلكترونية، وجعل مسؤولين عنها من بني جِلْدتنا، ممَّن يتسمَّوْن بأسمائنا، فهم في الظاهر منَّا، لكنهم

أشربوا حبَّ الغرب وثقافته، فهم مبشِّرون بثقافته وقيمه، يروِّجون لأفكارهم بواسطة بعض مَن ينسب إلى الخير، لا سيَّما ممن أقام أو يُقيم في بلاد الغرب، وتأثَّر بهم، وضَعُف عنده الولاء والبراء، إضافةً إلى جهلهم بعلوم الشريعة، فأغلبُ مَن يقدّمون في قنواتهم ووسائل إعلامهم أناسٌ غير متخصِّصين في أيِّ فرْع من فروع الشريعة، ولا يُعلم عنهم طلبُ العِلم، والتتلمذُ على العلماء، يُقدِّمون هؤلاء على أنهم يمثِّلون علماءَ الشريعة ودعاتها، وهم أبعدُ الناس عن ذلك في حالهم ومقالهم.

ومن أساليبهم في غزوهم الفكري العملُ على إفساد الأخلاق، ونشْر الرذيلة بين المسلمين عبرَ الأفلام التي تصوِّر الفاحشة، يعملون على تهوين أمر الفواحش في النفوس، وتسميتها بغير اسمها، فيسمُّون اللواط بالمثلية الجنسية، يسعون جادِّين لإخراج المرأة مِن عفتها وحجابها باسم الحريَّة؛ لأنهم يعلمون أنَّ المرأة هي السدُّ المنيع، فإذا فسدتِ المرأة فسدتِ الأجيال، وانغمسوا في الشهوات، فكانوا أبعدَ الخَلْق عن الاهتمام بدِين أو خلق يقومون بشراء بعض الإعلاميِّين ممَّن لا يعملون في وسائل إعلامهم، فيدعمونهم ويمكِّنون لهم للترويج لأفكارهم، والتبشير بمدنيتهم الزائفة ومن أساليبهم إبعادُ ناشئة المسلمين عن دِينهم عبرَ ما يسمُّونه بتجفيف المنابع،بإلغاء دروس التربية الإسلاميَّة، أو تفريغها من محتواها، بحيث تكون مجرَّدَ توجيهات للآداب العامَّة، التي يتَّفق الناس على استحسانها؛ مسلمُهم وكافرُهم .

الانفتاح الفكري.. حقيقته وضوابطه

الانفتاح الفكري مصطلح جديد، يحمل مفاهيم متعدِّدة وتتداوله الكتب العصرية، والنشرات الصحفيَّة دون تحديد دقيق لمعناه، فقد يطلقه البعضُ ويريد به الاطِّلاع وسعة الإدراك، وعدم قصر الفكر على مجال محدَّد، وقد يراد به مفهومًا اصطلاحياً خاصاً، وبهذا يكونُ الانفتاح من المصطلحات المجمَلة التي تحتاج إلى التفصيل عند دراستها، ولكن إضافة الانفتاح إلى العقل والفكر لَم يُعرَف في اللسان العربي وتركيباته، بينما نجده موْجودًا في النسَق اللغوي الغربي، ويدلُّ على تأثُّره بالأوضاع الفكرية والثقافية التي سادت المجتمعَ الغربي، وصراع الكنيسة مع العلم، ودورها السلبي في التعامل مع المجتمع، وهو بهذا المعنى يتضمَّن معانٍ غير صحيحة، وله إيحاءات ودلالات سيئة وسوء ظن بالشريعة الإسلامية واتهام لها بالانغلاق، وهو كذلك انهزام أمام الفكر الغربي، واعتباره انفتاحًا من الانغلاق.

والقولَ بحاجة الفكر الإسلامي بمعنى حقائق الإسلام العقديَّة المتَّفق عليها إلى أي فكر بشري آخر كالقول بحاجة الله تعالى للإنسان، لكنّ المنهزمين فكريًّا ونفسيًّا لَم يتصوَّرُوا أولاً: طبيعة هذا الدين وخصائصه ومميزاته ومصدره، ثم لم يعرفوا ثانيًا الخلل الكبير الذي وقع فيه الفكر الإنساني المبتعد عن الله تعالى في تصوُّره وقيمه وأدبياته، ونحن هنا لا

نقصد أفكار آحاد المسلمين القابلة للأخْذ والرد،لكن نريد الفكر الإسلامي المجمع عليه والمستند بوضوح إلى الوحْي الرَّبَّاني.

ضوابط الانفتاح الفِكْري: من حيث المبدأ، فإن الانفتاح على العالم فكريًّا وثقافيًّا له آثاره المفيدة في العلوم الدنيوية، إذا كان ممن التزم بدينه وعقيدته، ولا يخاف عليه الضلال أما المطالبة بشكل عام بالانفتاح على الغير،دون تحديد لنوعية القضايا التي يتم فيها الانفتاح، ونوعية المطالب به، فليس كل أحد يقدر على أخذ المفيد وترْك الزغل؛ فهذا لا شك في خطئه ومنافاته للمحافظة على الخصوصية التي تميز بها المسلمون عن غيرهم، لذا فلا بُدَّ مِنْ وُجُود ضوابط أثناء الانفتاح على الثقافات والمعارف بشكل عام، نوجزها في ما يلي:

أولاً: أن يكونَ الانفتاحُ بعد العلْم الشَّرْعي: فإن العلم بالشريعة الإسلامية ضرورة لمعرفة دين الإسلام وتطبيقها والعمل بها، وضرورة للانفتاح الفكري على الثقافات والآداب غير الإسلامية، فالانفتاح المفيد يكون بعد تصور عقيدة الإسلام وأحكامه تصورًا صحيحًا والثقة بها، ورد كل ما يخالفها من عقيدة أو عمل، أما الانفتاح قبل العلم فإنه مزلق خطير .

ثانيًا: أن يكونَ الانفتاح مع الالتزام بالإسلام: الإسلام دين شامل لكل جوانب الحياة الإنسانية، وثابت في قواعده وعقائده، وقد صور الأستاذ سيد قطب كيفية ثبات الإسلام مع تطوُّر الحياة وأنماطها المختلفة؛ فقال:

إنه تصور رباني، جاء من عند الله بكل خصائصه، ومقوماته، وتلقَّاه الإنسان كاملاً ؛ لا ليزيد عليه من عنده شيئًا، ولا لينقص كذلك منه شيئًا، ولكن ليتكيف هو به وليطبق مقتضياته في حياته.

وما زالت المشكلة قائمةً إلى اليوم، وإن اختلفت العبارات فكان الأقدمون يسمونها تعارض العقل والنقل، أما المعاصرون فقد يغيرون العقل والنقل إلى: العلم والدين،أو الدين والمدنية أو الدين والتطوُّر، أو غير ذلك.

ثالثًا: الانفتاح دون الانبهار بثقافة الغير: الانبهار بثقافة غير المسلمين وآدابهم وأفكارهم ومناهجهم دليلٌ على عدم العلْم بالإسلام، والاعتزاز به، والثقة المطلقة بصدقه، ودلالته على الفلاح والهداية في الدنيا والآخرة، ويدل على ضعف شخصية المنبهر، وهزيمة نفسه، وقصور فكره، ومن كانتْ هذه حاله فلن يتجاوز التقليد المجرد، أما التجديد والتطوير والإبداع والابتكار فلا يُمكن أن يحصلَها المنبهر حتى يفوقَ من سكر انبهاره بالغير، ويقوم بنقده نقدًا واعيًا ليأخذ ما يفيده، ويرد ما عداه.

يقول الدكتور يوسف القرضاوي: ومن الانفتاح المحذور: الانفتاح المبهور بثقافة الآخر، حين ينظر إليه مضخمًا من شأنه، معظمًا من فكره، شاعرًا بالدونية تجاهه لسبب أو لآخر، فكل ما قاله هذا الآخر، فهو صدق، وكل ما رآه فهو صواب، وكل ما فعله فهو جميل .

ويُمكن للمسلم أن يطلع على ثقافات الأمم الأخرى بعد العلم، ومع الالتزام ودون انبهار ليعرف نعمة الله تعالى عليه، أو للاطلاع على الصناعات والمخترعات المفيدة في قوة المسلمين أو غيرها من المصالح المشروعة، وأي أمَّة جادَّة تريد تطوير نفسها لا يمكن أن تسمح بالانبهار بالآخر بين أبنائها، فلما ذهب جيل من اليابانيين إلى الغرب رجع وهو يلبس الجينز، ويُقلِّد الغرب في كل شيء ذبحهم حاكم اليابان، وأرسل جيلاً آخر لَم يتأثرْ بشيءٍ من العادات أو الأفكار، بل تعلم التقنية والتكنولوجيا وتطوراتها فأصبحت من الدول الصناعية المنافسة.

الانفتاح المحمود الوعي والتحرر الفكري فالمتأمِّل في التاريخ الإسلامي يجد أن الأمة الإسلامية تعاملتْ مع غيرها من الأمم، من خلال الفتوحات الإسلامية الواسعة التي شملتْ دائرة واسعة من الأرض في زمن يسير وعندما دَخَل المسلمون هذه البلاد الواسعة مع تنوُّع ثقافاتها واختلاف مناهجها وفهمها للإنسان والكون والحياة، استطاعوا التعامل معها بنفعها بما جاء به الرسول - ص- والانتفاع بأخذ الأمور الدنيوية المفيدة، وترك ما لا فائدة منه، ولم يذوبوا في هذه المجتمعات.

وأساس هذا الانتفاع هو أن المنهج الرباني يأمر بعمارة الأرض وبناء الحياة وتطويرها وفق منهج عقدي محدد، وبهذا استطاعوا الجمع بين الثبات على الإسلام عقيدة وشريعة، مع أخذ المفيد من الحضارات المختلفة وعندما انْحَرَفت طائفةٌ من المسلمين في هذه المعادلة المتقنة،

وأخذوا من الأمم الجاهلية أمورًا منافية لكتاب الله تعالى؛ عابهم عامةُ الأمة، وحذروا منهم وسموهم أهل الأهواء ومِنْ هنا نلاحظ أنَّ الانفتاح المنضبط الذي حدث في الأمة الإسلامية نوعان:

١ ـ تشجيع الإبداع والاختراع بناء على أن هذه الأمة هي أمة العلم والفكر والبناء.

٢ ـ الاستفادة مما لدى الأمم الأخرى من الإبداع الإنساني الذي لا يُخالف الإسلام لهذا استطاع جيلُ القرون الثلاثة المفضلة أن يضعوا قانونًا منْضبطًا لحفْظ العلوم الدينية وماله ارتباط بها مثل العلوم العربية والتاريخية وغيرها، وكذلك استطاعوا التعامُل الصحيح مع أبناء البلاد المفتوحة مع اختلاف ثقافاتهم، وتنوُّع أفكارهم.

وفيما يأتي إطلالة يسيرة على الوعي الحضاري الذي تمتع به السلف الصالح، والانفتاح المعرفي الواثق من نفسه، الذي يراعي القواعد الشرعية ومقاصدها وروحها ونصوصها وتحويلها إلى واقع اجتماعي وثقافي تتربَّى عليه الأمةُ بأسْرها:

١ ـ ضبط العلوم وتدوينها: لم ينته القرن الثالث الهجري إلا وقد ضبطت كافة العلوم الشرعية ضبطًا دقيقًا، وكذلك ما يتعلق بها من علوم الآلة، فقد تم وضع قواعد قبول الرواية وفحصها، وما يتعلق بمصطلح الحديث، وما يتبع ذلك من الكلام في الرجال، وقواعد الجرح والتعديل، ونقد المتون المروية بما لم يوجد مثله في أي أمة من أمم الأرض، ولعل من

يطالع موضوعات كتب المصطلح يعلم مدى الوعي الفكري الموجود عند علماء الحديث، وكذلك تَمَّ ضبط مناهج الاستدلال وطرقه وأساليبه وآلاته مأخوذة من اللغة والقرآن وطريقة الرسول ص وأصحابه.

وعند النظر في قواعد وأصول كافة العلوم الإسلامية والعربية، ندرك عمق الإبداع والوعي الفكري والحضاري الموجود في الأمة، هذا الدور لا يمكن أن يقوم به مقلّد أو متقوقع أو جامدٌ أو غافل.

والحقيقة أن أساس فلسفة الغرب ومنطقه الحديث الذي يفخر به على الإنسانية ومن خلاله استطاع اكتشاف المخترعات الحديثة هو المنهج التجْريبي والاستقراء العلمي، وصورته الإدراك واليقين بأن الكونَ مُؤسس على العلل والأسباب وأنها مطردة، وبناءً على ذلك فإن اكتشاف العلة عن طريق فرض الفروض واختبارها وتزييف الزائف منها ليخلص من خلاله إلى معرفة العلة الحقيقة، فهذا ما يسمى الاستقراء الناقص.

والوصف بالنقْص ليس المراد به الذم، بل هو وصف لحقيقته، فإنه لا يتتبع كل الفروض ولكن يتتبع ما يوصله لاكتشاف العلّة المطردة في بقية الأنواع، فهو ليس بحاجة إلى استقراء تام وهو غير ممكن في الواقع، لهذا سَمَّاه فرنسيس بيكون: استقراء الصبيان.

هذا الاستقراء هو ما سُمِّي في مناهج البحث الحديث المنهج الاستقرائي التجريبي، وهذا المنهج موجود عند علماء السلف الصالح قبلهم فاستقراء الكلمات العربية جميعًا أمر مستحيل؛ لأن اللغة لا يحيط

بها إلا نبي، واستقراء أنواع الكلمات العربية إلى: اسم وفعل وحرف استقراء علمي قائم على الكفاية بالجزء للدلالة على الكل، وهكذا الأمر في طرق الاستدلال الأصولي.

٢ ـ الأدلة العقلية على القضايا العقدية: إنَّ المتأمل في تعامل القرآن الكريم مع قارئه والناظر فيه، يتضح له أنه يعتمد على إقناعه بالبراهين والآيات والأمثال، وليس على مجرد التلقين كما يلقن الصبيان فقد أصَّل القرآن قبول العقيدة واعتناقها بتأصيله لإثبات وجود الله وربوبيته وألوهيته، وإثبات صدق الرسول ص وأدلة نبوته، وإثبات صحة الدين، وتأسيس ذلك على العقل، فالقرآن يفيض بالأدلة والبراهين القاطعة على أساسيات الإسلام ومصادره.

وهذا يدل على أن التربية القرآنية قد نَمَّت الوعي والانفتاح العلمي من حيث بناء العقيدة الإسلامية، ونقد المخالفين لها، لهذا نجد أن الله تعالى يُطالب من يعارض عقيدة الإسلام بالبراهين المقنعة؛(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) فليس المطلوب من الإنسان الإيمان بعقائد المسلمين دون دليل؛ لأن القرآن تضمن الأدلة بما يكفي المنصف الذي يريد الحق، أما المكابر والمعاند فلا تقنعه رؤية الشمس عياناً.

ودلالة ما تقدم هي أن هذا الدين مبنيٌّ على الأدلة العقلية المقنعة، وقد نمّى هذا الشعور لدى المؤمن به الثقة واليقين بصحة عقائده ووعده ووعيده، وحث على الدعوة إليه بالطرق البرهانية، لهذا جاءتْ عقائده

محررة للعقول والنفوس من الأوهام والخرافات والأساطير والعقائد الفاسدة، والتقليد الأعمى، ومتابعة الآباء والأجداد دون برهان وبينة، ونحو ذلك من القناعات الوهْمِيَّة التي لا دليل عليها.

والغرض هنا الإشارة إلى تنمية الإسلام للوعي والإبداع والتطور، وتضمنه لذلك دون حاجة إلى استعارة مناهج وأفكار أجنبية عن المجتمع الإسلامي.

ولهذا اعتبر الدكتور علي سامي النشار - وهو ممن له عناية بالفلسفة وتاريخها - أن أصول الفقه والتاريخ من أبرز الإبداعات الفلسفية عند المسلمين، بغضِّ النظر عن تسمية مثل هذه العلوم فلسفة أو مناقشته فيها، إلا أنه يدل على شعور بعُمْق الإبداع والاختراع والتألُّق فيها ممن درس كتب الفلسفة، وتعرف على مداخلها ومخارجها والمقصود هنا: أن الإبداع الذي تَمَّ في تأسيس العلوم ووضع قواعدها يدل على أرقى درجات الوعي العلمي الذي وجد عند علماء المسلمين الأوائل.

٣ - سعة الاطِّلاع: مَن يقرأ تراجم علماء السلف الصالح يُدرك التوسُّع الهائل عندهم في تلقِّي العلوم ودراستها، وقد رحلوا في سبيل ذلك وبذلوا الغالي والنفيس قال الأزهري: كان الدارقطني ذكيًّا، إذا ذكر شيءٌ من العلم وجد عنده منه نصيب وافر، لقد حدثني محمد بن طلحة النعالي أنه حضر مع الدارقطني دعوة فجرى ذكر الأكلة فاندفع الدارقطني يورد نوادر الأكلة، حتى قطع أكثر ليلته بذلك.

ومحمد بن عبدالباقي الأنصاري المتوفَّى سنة ٥٣٥ هـ لما أسر في أيدي الروم تعلَّم منهم اللغة الرومية والخط الرومي، لهذا قال عن نفسه: ما من علم في عالم الله إلا وقد نظرت فيه وحصَّلت منه بعضه أو كله.

يقول الصفدي عن شيخ الإسلام ابن تيميَّة: أخبرني المولى علاء الدين علي بن الأموي، وهو من كبار علماء الحساب قال: دخلت يومًا إليه أنا والشمس النفيس صاحب بيت المال ولم يكن في وقته أفضل منه فى الكتابة فأخذ الشيخ تقي الدين يسأله عن الارتفاع، وعما بين الفذلكة واستقرار الجملة من الأبواب،وعن الفذلكة الثانية وخصمها،وعن أعمال الاستحقاق، وعن الختم والتوالي، وعن ما يطلب من العامل، وهو يجيبه عن البعض ويسكت عن البعض، ويسأله عن تعليل ذلك؟ إلى أن وضح له وعلله، قال: فلما خرجنا من عنده قال لي النفيس: والله تعلمت اليوم منه ما لم أكن أعلمه.

كل هذا الاطلاع مع صحة عقيدة، وحسن تدين، وهذا يدل على أن الثقافة والاطلاع لا يلزم منها فساد العقيدة والتخبُّط فيها ويقول أبو البقاء السبكي: أعرف عشرين علماً لم يسألني عنها بالقاهرة أحدٌ وفي كتب التراجم عجائب من سعة الثقافة والاطلاع على العلوم عند علماء المسلمين الأوائل ممن لم يلج في البدع والعقائد الضالة المنحرفة، وقد وجد فيهم من الحرص والشغف بالكتب قراءة وتحصيلاً الشيء العجيب، فقد كانوا يكررون قراءة بعض الكتب المهمة مئات المرات ويقرأون

المطولات في المجالس المعدودة قراءة ضبط وتدقيق، ويدرسون الكتب مرات كثيرة، وكذلك الأمر في نسخ الكتب وكتابتها.

هذه بعض الإشارات التي تدل على مدى إبداع علماء السلف، وعُمق علومهم واطلاعهم، والمتأمّل في علمهم وعملهم يدرك أن أبرز سبب في عُمق علومهم هو انتهاجهم للمنهج الرباني، والسير على درب الأنبياء، وتعظيم حق الله تعالى ورسله وكتبه،فمن جهل معرفة الله تعالى وحقه، فهو بغيره أجهل، حتى لو تزيَّن بلباس الثقافة، ومن عرف الله تعالى ودينه، فإن الله تعالى يعرفه ما سوى ذلك.

لكن قد يقول قائل: إن المخالف في هذه القضية (الانفتاح) سواء الفلاسفة أو المتكلمون أو التنويريون العصرانيون حديثًا لا يخالف في أن الإسلام جاء بالوعي والانفتاح، بل إنه يتخذ من ذلك ذريعة لتبرير واقعه ودعوى أن ما يقوم به يوافق الإسلام، خاصة وأنَّ هذه المرحلة تشهد تخلي كثير من التنويريين عن محاربة الإسلام ومصادره بصورة فاضحة مكشوفة، فقد اتجهوا إلى تبرير أفكارهم وعقائدهم والاستدلال عليها من القرآن والسنة،من خلال تأويل نصوصه، وقراءتها قراءة جديدة لتوافق مذاهبهم وهذا القول صحيح، فلم يعد الخلاف في شعار الإسلام العام، وأنه يحمل كل وعي وخير وفلاح للإنسانية، لكن الشأن في تفسيره وقراءته.

الانفتاح المذموم (التبعيَّة والانهزام)

كان جيلُ الصحابة - رضي الله عنهم - هو أفضل جيل تلقى الشريعة الإسلامية وفهمها فهماً صحيحاً، وعمل بها، وجاهد لأجلها، وهو بحقٍّ جيلٌ فريد، وهو جيل القدوة الذي عايش الإسلام قولاً وعملاً، وتصوره كما أراده الله تعالى، وكان لهذا التميز أسباب كثيرة؛ منها: عدم فساد فطرته بالأفكار والمناهج والنظريات الفلسفية، التي هي من خرص العقول، وأوهام التفكير البشري العاجز، وكذلك جودة أفهامهم، وسلامة صدورهم، ونحو ذلك مما حباهم الله تعالى إياه من الصفات والأخلاق.

ولما أنزل القرآن الكريم عليهم فهموه فهماً بعيداً عن العقد الفكرية، والوساوس الشيطانية التي لعبتْ بعقول كثيرٍ من الأمم ممن كان حولهم؛ مثل: الرومان والفرس والهنود وغيرهم، وتمثلوا الشريعة واقعًا عمليًّا في كل جوانبها وأنحائها، ومنها: الجانب الفكري الذي فتح آفاق الإبداع أمامهم على مصراعيه، وفق أوامر الشريعة وتعليماتها.

لهذا لم يحتاجوا إلى أي أمة من الأمم حولهم؛ لشعورهم بكمال دينهم، ولمعرفتهم التامة به، ولعلمهم أنه لا نجاة في كل جوانب الحياة ومنها الفكر إلا بهداية الله تعالى والمتأمل في الوحي الرباني يجد فيه الإجابة الشافية على أعقد المعضلات الفلسفية، والإرادات النفسية الروحانية، والتصورات الفلسفية بين الأمم متفقة في الموضوع، وإن كانتْ مختلفة في الآراء والنتائج التي توصلتْ إليها، وفي الوحي المعصوم إجابات

صادقة، موثَّقة المصدر لكل موضوع فكري فلسفي مما تحتاجه الأمة، وتريد معرفة وجْه الحق فيه، ولم تحدث الانحرافات والضلالات عند فئات من المسلمين، إلا بسبب عدم معرفة أحكام الإسلام وعقائده بصورةٍ صحيحة، أو عدم الثقة فيها مع الانبهار والانهزام أمام الغير، والشعور بقدرته على الحل لغوامض الأفكار ودقيقها ثم ظهر بعد الصحابة رضي الله عنهم والقرون المفضلة أقوامٌ انحرفوا عن الحق، وتنكبوا الصراط المستقيم لأسباب كثيرة؛ منها: الانبهار بما لدى الأمم الأخرى من العلم والفكر والنظر، والانفتاح عليهم للتلقّي عنهم.

ولكونهم من المسلمين اقتضى ذلك محاولة التوفيق بين ما تلقوه وما يدينون به، فظهر التأويل كأداة فعّالة للجمع والتوفيق، فألغوا دلالات النصوص، وأنزلوها على غير وجهها الصحيح، وقد دعاهم الانفتاح الفكري على أفكار الأمم الأخرى إلى إهمال نصوص الوحيين، والانشغال بعلوم من انفتحوا عليه.

وفيما يأتي إطلالة على هذه الاتجاهات باختصار:

١ ـ الفلاسفة الإسلاميون: وهم طائفةٌ من المنتسبين للإسلام درسوا الفكر الإغريقي اليوناني، وتشربوه وترجموا كتبه وشرحوها، واعتنقوا نظريات الفلسفة اليونانية، ومن أولئك: الكندي، والفارابي، وابن سينا، وابن رشد، وغيرهم يقول الشهرستاني: قد سلكوا كلهم طريقة أرسطو في جميع ما ذهب إليه وانفرد به، سوى كلمات يسيره.

ومعلوم أن أرسطو وأفلاطون وثنيون، ليس لهم دين رباني، ولا كتاب معصوم، وكل عقائدهم من نتاج العقل فهو رسولهم، وما أوصلهم إليه فهو دينهم وقد كفَّرهم الغزالي في تهافُت الفلاسفة بثلاث مقالات:

القول بقدَم العالَم - إنكار علم الله تعالى بالجُزئيات - إنكار البعْث الجسماني وقد بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية طريقتهم في نصوص الأنبياء فقال: فأهل الوهم والتخيل هم الذين يقولون: إن الأنبياء أخبروا عن الله وعن اليوم الآخر، وعن الجنة والنار، والملائكة، بأمور غير مطابقة للأمر في نفسه، لكنهم خاطبوهم بما يتخيلون به، ويتوهمون به أن الله جسم عظيم، وأن الأبدان تُعاد، وأن لهم نعيمًا محسوسًا، والأمر ليس كذلك في نفس الأمر؛ لأن مصلحة الجمهور أن يخاطبوا بما يتوهمون به، ويتخيلون أن الأمر هكذا، وإن كان هذا كذبًا فهو كذب لمصلحة الجمهور إذا كانت دعوتهم ومصلحتهم لا تمكن إلا بهذه الطريقة، وقد وضع ابن سينا وأمثاله قانونهم على هذا الأصل، كالقانون الذي ذكره في رسالته ثم منهم من يقول: إن النبي يعلم الحق، ولكن أظهر خلافه للمصلحة، ومنهم من يقول: إنه كان لا يعلم الحق، ويفضلون نظار الفلاسفة عليه، لهذا فالفارابي، ومبشر بن فاتك، وغيرهم يفضلون الفيلسوف الكامل على النبي وقد كان الفارابي يقول ببقاء الأنفس،وأحيانًا يقول ببقاء الأنفس العالمة دون الجاهلة، وهذا إنكار صريح للبعث واليوم الآخر وهؤلاء

الفلاسفة درسوا الفلسفة اليونانية بدقَّة بالغة مع الإعراض عن الوحي، لهذا نجد عامة مُصنفاتهم في الفلسفة.

يقول ابن سينا: وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة فأشكل علي حتى أعدت قراءته أربعين مرة، فحفظته ولا أفهمه، فأيست، ثم وقع لي مجلد لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الحكمة الطبيعية ففتح عليَّ أغراض الكتاب ففرحتُ قال الذهبي عن ابن سينا: وقد كفّره الغزالي في كتاب المنقذ من الضلال، وكفّر الفارابي، وقد تتلمذ هؤلاء الفلاسفة على النصارى والوثنيين، فالفارابي لقي متّى بن يونس صاحب المنطق، فأخذ عنه،وسار إلى حرَّان، فلزم بها يوحنّا بن جيلان النصراني، وكان الفارابي مغنيًا بارعاً في ضرب العود وبلغ من الإلحاد عندهم أنَّ الكندي كما يقال: هَمَّ بأن يعملَ شيئًا مثل القرآن، فبعد أيام أذعن بالعجز وكل ما تقدم كان بسبب الانفتاح الفكري على الأديان الأخرى وفلسفتها، فكانت النتيجة الإلحاد،وتعلم التنجيم،والموسيقى والمنطق، والتتلمذ على النصارى والوثنيين مع الجهل بالعلوم الشرعية والعربيَّة.

٢ ـ المتكلمون: وهم طائفة من المسلمين اشتغلوا بمناظرة الفلاسفة وأهل الأديان الأخرى بنفس الطريقة والمنهج، مع الجهل بالشريعة الإسلامية؛ أدَّى بهم إلى التزام لوازم فاسدة، فتكونت عندهم أصول بدعية في أغلب أبواب العقيدة، وكذلك تكونت أدلة بدعية أوصلتهم إلى مخالفة السنة في كثير من المسائل، ولعل من أبرز العوامل التي أثرت في

انحراف المتكلمين: الالتقاء بأصحاب الديانات والمذاهب الأخرى، والتأثر بها، ودخول الزنادقة من أبناء البلاد المفتوحة في الإسلام نفاقا بغية الإفساد قال سليمان البلخي: كان جهم من أهل الكوفة، وكان فصيحاً، ولم يكن له علم، فلقيه قوم من الزنادقة فقالوا له: صف لنا ربك الذي تعبده، فدخل البيت لا يخرج مدة، ثم خرج وقال: هو هذا الهواء مع كل شيء، وفي كل شيء، ولا يخلو منه شيء.

وكان للترجمة أثرٌ بالغ الخطورة في تكوُّن مناهج الكلام، وليست الخطورة في الترجمة ذاتها، بل في موضوعها، وهو ترجمة الكتب الفلسفية، ولاتخاذها مصدرًا للتلقي، ورافق الانفتاح على الفكر اليوناني بحجة النقد والرد والاطلاع الجهل بالكتاب والسنة وعلومها.

يقول ابن تيمية: ومن المعلوم أن المعظمين للفلسفة والكلام، المعتقدين لمضمونهما، هم أبعد الناس عن معرفة الحديث وهذا أمر محسوس،إذا كشفت عن أصولهم وجدتهم من أجهل الناس بأقواله ص وأحواله، وبواطن أموره وظواهرها، حتى لتجد كثيراً من العامة أعلم بذلك منهم، وتجدهم لا يميزون بين ما قاله الرسول ص وما لم يقله، وقد لا يفرقون بين حديث متواتر عنه، وحديث مكذوب موضوع عليه حتى تجد في أئمة علماء هؤلاء من لا يميز بين القرآن وغيره، بل ربما ذكرت عنده آية، فيقول: لا نسلم صحة الحديث وربما قال: لقوله - ص- كذا، وتكون آية من كتاب الله، وقد بلغنا من ذلك العجائب، وما لم يبلغنا أكثر،

وحدثني ثقة أنه تولى مدرسة مشهد الحسين بمصر بعض أئمة المتكلمين رجلٌ يسمى شمس الدين الأصبهاني شيخ الإيكي فأعطوه جزءًا من الربعة، فقرأ: (بسم الله الرحمن الرحيم * المص)، حتى قيل له: ألف لام ميم صاد، ولا غرابة أن يقول الغزالي عن نفسه: أنا مزجى البضاعة في الحديث، وهذا حالهم.

وقد ذم العلماءُ علم الكلام وأهله ذمًّا شديدًا، لا لكونه استعمل مصطلحات جديدة، بل لكون معانيه باطلة تتضمَّن ما يناقض الوحي وللازدواج المقيت الذي فرَضَه المتكلمون بين الوحي والعقل، فقد اتسموا بالتناقض في الأقوال والآراء، وكثرة الجدل واتِّباع المتشابه، والتعسُّف في التأويل والغلو في تعظيم العقل واعتباره مصدرًا للتلقّي، وقلة تعظيم النصوص الشرعية، وكثرة الشك والتوقف والاضطراب والحيرة، مما دعا كثيرًا من كبار المتكلمين للرجوع عن مناهجهم الكلامية، وكثرة التفرُّق والاختلاف بينهم.

كل هذه السمات وغيرها عند المتكلمين إنما كانتْ بسبب البعد عن المنهج الشرعي والجهل العظيم بمفاهيم القرآن والسنة، والانفتاح على أفكار ومناهج الضالين،وهي من الشبهات المضلة،وبآثار الانفتاح المذموم ندرك ضرره وخطورته وهذا يدل على أن فكرة الانفتاح فكرة قديمة تظهر بين الحين والآخر، إما للجهل بالدين وتعظيم الغير والانهزام، أو للإعجاب بالنفس ومحاولة اكتشاف المجهول، أو لأي داع

من الدواعي الأخرى وقد برزتْ آثارها فيهم واضحة لمن قرأ تاريخهم ومقالاتهم وما آلت إليه مناهجهم من الضلال والبُعد عن الحقِّ.

ومن مقالاتهم:

♦ تقديم العقل على النقل، واعتباره المصدر الأول لتلقى العقيدة.

♦ عدم قبول خبر الآحاد في العقيدة، والقول بأن الدلالات اللفظية لا تفيد اليقين إلا بتجاوز عقبات؛ مثل: نفي الاشتراك والمجاز والمعارض العقلي ونحو ذلك، وبهذا يكونون قد ردوا المتواتر والآحاد في الاستدلال على العقيدة.

♦ تأويل أسماء الله تعالى وصفاته أو بعضها.

♦ القول بنفي القدر أو القول بالجبر في باب القضاء والقدر.

♦ اعتبار الإيمان تصديقًا قلبيًّا دون قول اللسان وعمل القلب والجوارح.

♦ قول المعتزلة بوجوب الأصلح على الله تعالى، وأن الوجوب لا يكون إلا بالعقل استقلالاً.

♦ حصر التوحيد في الربوبية والصفات، وإهمال توحيد الألوهية، وبناء على ذلك حصروا الشرك في الربوبية دون الألوهية، وبرروا الشركيات العملية بكونها لا تقدح في التوحيد أي الربوبية.

♦ والقول بعدم التفريق بين النبي الصادق والمدعي الكاذب إلا بالمعجزة، والقول بعدم الفرق بين المعجزة والسحر وغيره من الخوارق إلا بدعوى

النبوة في الأول دون الثاني ولو ادعاها الثاني لسلب هذه الخوارق، ولم تحدث له.

ونحو ذلك من الأقوال المنْحرفة عن السُّنَّة النبويَّة.

٣ ـ التنوير والعصرانية: التنوير والعصرنة يُراد بها تلك الحركة الفكرية المنفتحة على الحضارة الغربية وفكرها مما أدَّى إلى تأويل نُصُوص الوحي ليوافق متطلبات العصر وحاجاته، وهناك تشابه بين الفلاسفة والمتكلمين قديماً، والتنوير والعصرانيين حديثًا في الانفتاح على الغير، (الفلسفة اليونانية قديماً، أو الحضارة الغربية حديثًا)، وتأويل النصوص، ولي أعناقها لتوافق الآراء والأفكار الجديدة الحادثة بسبب هذا الانفتاح.

والفكر العصراني حركة واسعة نشطتْ داخل الأديان الكبرى ومبنية على الاعتقاد بأن التقدُّم العلمي والثقافة المعاصرة يستلزمان إعادة تأويل التعاليم الدِّينية التقليدية على ضوء المفاهيم المعاصرة، أو مفاهيم العقل عموماً، ومُحاولة تأويل النصوص لتوافق هذا القول أو ذاك وجذور هذا الفكر تعود إلى الفلاسفة والمتكلّمين كالمعتزلة، ودعاة قديم العقل على النص عموماً.

وهم أمشاج فكريَّة مختلطة: منهم العلماني اللا ديني المتستر بالدِّين، ومنهم الإسلامي المنحرف في طريقة الاستدلال ومنْهجه وبدأتْ حركه التنوير والعصرنة منذ بوادر النهضة في العالم العربي والإسلامي على يد

المبتعثين الأوائل، ثم تطوَّر منهج التنوير، واختلف عن حاله الأول إلى أوضاع مأساوية مناقضة للإسلام أصوله وجذوره.

يقول الأستاذ محمد قطب: نحسب الأجيال الأولى من التنويريين، رفاعة الطهطاوي وأمثاله كانوا مخلصين، والله أعلم بهم، لم يكن في قلوبهم ذلك الحقد الأسود على الإسلام، الذي اكتسبه المتأخرون منهم الذين يتحدثون عن المسلمين في شماتة ظاهرة لا حياء فيها، ويتحدثون عن الإسلام كأنه العدو الأكبر الذي لا بد من إزالته من الأرض، لكن الإخلاص وحده لا يغني إذا كان المنهج غير صحيح، لقد رأوا واقع أمتهم السيئ، وكانوا راغبين حقًّا في إنقاذ أمَّتهم الإسلامية على وجْه التحديد بصفتها تلك، لا بأي صفة سواها، وظنوا أن السبيل الأوحد للإنقاذ هو تقليد أوروبا، فكان خطؤهم في طريقة التفكير، وليس فساد في الضمير، وكان الخطأ ناشئًا من الهزيمة الرُّوحية التي استولتْ على أرواحهم تجاه الغرب والحضارة الغربية، ولم يكونوا من أولى العزْم، لذلك لفتهم الدوامة، وذهبت بهم كل مذهب فلم يقووا على مقارنتها، وتحْديد مسارهم الذاتي في داخلها، أمَّا المحدثون فلهم شأن آخر، إنهم ليسوا حريصين على إنقاذ أمتهم الإسلامية بصفتها تلك، بل هم على العكس من ذلك حريصون على إبعاد هذه الأمة عن الإسلام، باعتبار أن هذا العلاج الذي لا علاج غيره لما أصاب الأمة من الأمراض، فهم سابحون مع تيار الغرب برغبة ووعي، ويعلمون على وجه التحديد ماذا يريدون؟.

لقد تبنى التنويريون كافة الإيديولوجيات الغربية بكل أطيافها فظهر فيهم: الشيوعي، والليبرالي، والحداثي، ونشروا هذه المناهج في العالم الإسلامي، وتعاوَنوا مع الامبرياليين في بناء المؤَسَّسات التعليمية والفكرية على نظريات غربية ملحدة في كافة المجالات الفلسفية والأدبية والنفسية والاجتماعية، حتى ظهر مَن يدعو لنظرية الارتقاء والتطور - مذهب دارون - التي حاربها علماء الأحياء الغربيون المنصفون، وغطى هؤلاء كافة وسائل الإعلام كالصحافة والتلفاز ودور النشر، والمحاضن التربوية كالمدارس والمناهج والجامعات والمؤسسات العلمية المستقلة، والمؤسسات الفكرية والثقافة الرسمية وغير الرسمية، المحلية والإقليمية والدولية.

ولعلي أمثل لنموذج من هؤلاء، وهو طه حسين؛ حيث يقول: إن سبيل النهضة واضحة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء، وهي أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم؛ لنكون لهم أنداداً،ولهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يُعاب، وهذا المؤصل لمنْهج الثقافة والحضارة المستقيمة حسب زعمه يعتبر مِنْ رُواد النهضة ورموزها المُمَيزين.

ولعل أبرز إنجازات حركة التنوير الكبرى كما يريدون هي: تحرير المرأة - حرية الفِكْر - الحرية السياسيَّة ونتائج هذه الإنجازات هي:

١ - إفساد المرأة وخروجها عن الفطرة والطبيعة الإنسانية في كينونتها.

٢ ـ انتشار الكفر عن طريق تبنِّي المذاهب الفكرية المعاصرة باسم حرية الفكر، وإعلان الإلحاد، ومُعارضة رب العالمين في خبره وأمره.

٣ ـ الحكم بغير ما أنزل الله، وتشريع الأهواء البشريَّة للحكم بين الناس، العمالة للغرب الكافر، ومحاصرة المسلمين والضَّغْط عليهم، وحماية الغرب الكافر عن طريق محاربة الإعداد للخروج من المأزق الحضاري والعسكري المستقل للأمة، والتبعية الحمقاء للغرب في كل شيء وإن صغر.

وإذا أردنا أن نتصور مناقضة دعاة التنوير لأصول الدين وقواعده، فيُمْكن أن نأخذ نماذج لأقوالهم، ومن ذلك:

♦ يقول حسن حنفي: يُمكن للمسلم المعاصر أن ينكرَ كل الجانب الغيبي في الدِّين، ويكون مسلمًا حقًّا في سُلُوكه.

♦ ويقول محمد أحمد خلف الله: لقد حرَّر الإسلامُ العقل البشري من سلطان النبوَّة من حيث إعلان إنهائها كلية، وتخليص البشريَّة.

ومن أبرز الأمثلة على التبعيَّة الفكرية في الفكر العربي المعاصر: الاتِّجاه الحداثي الجديد في التعامُل مع النَّصِّ الشرعي، يقول محمد أركون: فالقرآن نصٌّ مفتوح على جميع المعاني، ولا يُمكن لأيِّ تفسير أو تأويل أن يغلقه أو يستنفذه بشكلٍ نهائي.

ويعتمد الفكرُ الحداثي الجديد على النصِّ القرآني كتاريخ، وأن المعاني المعروفة في كتب التفسير في النصوص لم يعد لها مكان في العصر

الحديث، لهذا فلا بُدَّ من الاعتماد على قراءة جديدة للنص، يقول أركون أيضاً: إن القراءة التي أحلم بها هي قراءة حرة إلى درجة التشرُّد والتسكُّع في كل الاتجاهات، إنها قراءة تجد فيها كلَّ ذات بشريَّة نفسها.

وبناء على هذا فلا توجد حقيقةٌ مُطلقة للمعاني القرآنية، بل هي أمورٌ نسبيَّة،وفي ذلك يقول: إنَّ القول أن هناك حقيقة إسلامية مثالية وجوهرية مستمرَّة على مدار التاريخ وحتى اليوم ليس إلا وهْماً أسْطوريًّا، لا علاقة له بالحقيقة والواقع وقد قام هذا الاتِّجاه بعمليَّة تأويل واسعة للمحكمات الشرعية يماثل ما قام به الباطنيون القدامى، وهذه التأويلات الجديدة هي تطوُّر جديد في الفكر العربي العلماني المعاصر يعتمد على هدْم الأصْل بالأصل نفسه ومِنْ نماذج المدْرسة العصرانية - الداعية للانفتاح على الواقع - مجموعة من المسلمين تأثروا بالفكر الغربي،وأرادوا تأويل الحقائق الشرعية لتوافق الواقع، ووقفوا لذلك موقفًا سلبيًّا من النُّصوص الشرعية، ومن السلف الصالح، يقول فهمي هويدي في مقال له بعنوان: وثنيون هم عبدة النصوص، وثنية جديدة وذلك أن الوثنية ليست عبادة الأصنام فهذه صيغة الزمن القديم، ولكن وثنية هذه الأزمان صارت تتمثل في عبادة القوالب والرموز، في عبادة النصوص والطقوس ويقول حسن الترابي - عن فهم السلف -: وكل التراث الفكري الذي خلَّفه السلف الصالح في أمور الدين هو تراث لا يلتزم به، وإنما يستأنس به.

هذه نماذج تدل على أن الانفتاح إذا فقد ضوابطه يوصل إلى الانحرافات الفكرية، وأن الانفتاح أخذ مفاهيم جديدة زائدة على مجرد الاطلاع ومعرفة ما لدى الآخرين من الأفكار والآراء.

حرب الأفكار

إننا نعيش اليوم في عالم متسع الآفاق والأرجاء، يحوي مجموعة من البشر مختلفين في عقائدهم وأهوائهم وعاداتهم وأخلاقهم، وأفكارهم، وإذا كان العالم قديماً وحديثاً يخشى من الحروب المدمرة التي تقضي على الأخضر واليابس، فهناك حرب أشد خطراً علينا، هي حرب الأفكار الغربيَّة التي شنَّها أعداء الإسلام، فتوالت القذائف الفكريَّة القاتلة، بدلاً من القذائف الناريَّة التي تكلِّفهم أموالاً وخسائر عظيمة، بل وتُحدِث صحوة إسلاميَّة وغضبًا من الشعوب عليهم، فشرعت القوى العالميَّة الغربيَّة في قذف العالم كله بقنبلة فكريَّة قنبلة النظام العالمي الواحد، والفكر العالمي الواحد، والثقافة العالميَّة الواحدة.

وكانت بهذه القنبلة شذرات محرقة من التيارات العلمانيَّة والوضعيَّة وغيرها،فنتج عن ذلك سرطان فكري عجز العالم عن التصدي له؛ لأن الغزو الفكري قلَّما يجد مقاومة؛ لأنه يخترق العقول ويتحكَّم في العقائد والأخلاق، ويستهوي طائفة من الناس دون خيار منهم، والدليل على ذلك ما تكلَّم به بني جلدتنا، حيث قال: إنه إذا كانت الرابطة الشرقيَّة سخافة، فإن الرابطة الدينيَّة وقاحة، والرابطة الحقيقيَّة هي رابطتنا بأوروبَّا، فهي

الرابطة الطبيعيَّة لنا، كلما زادت معرفتي بالشرق، زادت كراهيتي له، وشعوري بأنه غريب عنِّي، وكلما زادت معرفتي بأوروبَّا، زاد حبِّي لها وتعلُّقي بها، وزاد شعوري بأنها منِّي وأنا منها، فأنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب، وهذا هو مذهبي الذي أعمل به طول حياتي سرًّا وجهرًا!

وبكل صراحة أقول: لقد نجح النظام العالمي في حربه الفكريَّة بعد فشله في حربه العسكريَّة؛ لأنه غزانا في عُقْر دارنا حتى في أماكن نومنا، إنه احتلال القلوب والعقول، الذي يهدد الأجيال الحاضرة والقادمة، ويهدد الشباب والشابَّات والكهول والعفيفات والآباء والأمهات؛ لأن هذا الغزو الفكري يركِّز في حربه على الدين واللغة والأخلاق.

والعدو يعلم أنه مهما استعرض قوته الحربيَّة لن يستطيع أن يدفع هؤلاء الثلاثة، إلا ببث السموم الفكريَّة السرطانيَّة في عقول الشباب، والكبار، عن طريق شيوع مجموعة من الأفكار التي في ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، وظاهرها يعني التقدُّم والرُّقي والحضارة والتجديد، وباطنها العلمانيَّة والماسونيَّة والعَوْلَمة والانحلال والتبعيَّة، وانفصال الدين عن الدولة، بل القضاء على الدين وإعدامه في ميدان عام بأيدي بعض المسلمين أو على الأقل جعله يتيمًا بين أهله، وللأسف نجحوا في ذلك، وإن كان نجاحهم مؤقتًا وغير مستمر، والسبب في نجاحهم:

١- حالة الضَّعف الشديد التي يعيشها العالم الإسلامي بسبب الفرقة والتنازع، مع سيطرة كاملة للغرب .

٢- التحكم في الإعلام وبث أفكارهم عَبْر القنوات الفضائيَّة والأقمار الصناعيَّة، وشبكة الإنترنت الدوليَّة.

٣- تعزيز موقف الغرب في حربهم الفكريَّة للإسلام من فئة لا خلاق لها، تحاول غسل مخ الأجيال القادمة، بتعظيم شأن الغرب، ووضع إسلام زائف لا صلة له بإسلام القرآن والسُّنَّة إسلام عصري يعتني بالقشور فقط.

٤- ضَعف مستوي التعليم في العالم الإسلامي، والتحكُّم في مناهجه بوضع مناهج تهدم القِيَم والأخلاق في نفوس الناشئة، تصل بها إلى احتقار هذه القِيَم والاستهزاء بها.

٥- غياب الدور الأسري في التوجيه التربوي والثقافي للأبناء، والاعتماد على ما يُطرح عليهم في الوسائل التعليميَّة.

٦- غياب الدور الإعلامي في توجيه الأمة الإسلامية، وتحذيرها مما يُحاك لها من أفكار هدَّامة.

وسائل مقاومة هذه الحرب الفكريَّة:

١-أن تهتم المنظمات الإسلاميَّة بتكوين لجنة من المفكِّرين المسلمين لرصد الأفكار ودراستها دراسة علميَّة موضوعيَّة، واستخلاص الزائف منها، وحماية النشء من أعضاء الأمة الإسلاميَّة من خطرها؛ لأن الفكر لا يُحارب إلا بفكر مثله.

٢- امتلاك وسائل البث المباشر: كالأقمار الصناعيَّة والمحطَّات الأرضيَّة، وترشيدها وَفْق منهج إسلامي.

٣- ترشيد العمليَّة التعليميَّة والثقافيَّة في حياتنا، وتنقيح المناهج من الأفكار الدخيلة السائدة في العالم الإسلامي.

٤- تقوية الجوانب السياسيَّة والاقتصاديَّة والفكريَّة في حياتنا؛ لأن الأقوى يؤثِّر دائماً في الضعيف.

٥- عدم استهلاك الأوقات بالشُّبهات التي يحدثها الغرب من وقت لآخر؛ لشغل المفكرين المسلمين والعلماء عن القضايا الأساسيَّة.

٦- على ولاة المسلمين صدُّ هذه الأفكار عن المسلمين وبلادهم، وأخذ التدابير اللازمة لحماية الأمة .

٧- تناسي الخلاف بيننا، خصوصاً في الأمور الفرعيَّة، واستخدام الحوار الهادئ لحلِّ قضايانا.

٨- الشعور بالكيان الإسلامي، والحد من نظرة الإجلال التي يَنظر بها العالم إلى الغرب؛ فهم بنوا حضارتهم على أكتافنا، وتفوقوا علينا عندما ظللنا نبكي على أطلال أمجادنا.

٩- اليقين الجازم الذي لا يعتريه الشكُّ في أن الإسلام وحدَه قادر على بناء شخصيَّة قويَّة في إيمانها وأفكارها وأخلاقها، والتاريخ يشهد بذلك، والإيمان الجازم الذي لا يعتريه الشكُّ بفساد أفكارهم؛ لأنها نابعة من عقيدة فاسدة ملطخة بأدران الشرك والوثنيَّة؟!

أهمية الأمن الفكري

هناك نابتة من أبناءنا نبتت على غير هدى بسبب ما تلبست به أفكارهم من شوائب، وسارت به عقولهم لما فيه الضرر لهم ولغيرهم، فوقعوا صرعى بيد غيرهم ممن يتمنون الدمار والخراب لهذه البلاد، ويحرصون على نزع فتيل الفتن لينتشر الظلم ويضيع الأمان، وهذه الفتنة التي حلت بديارنا تحتاج للوقوف في وجهها؛ ليمكن معالجتها بحكمة وتعقُّل وحزم، والأخذ بأيدي شبابنا إلى طريق الجادة، قبل أن تتخطفهم الأيدي الآثمة التي تمتد في الخفاء لتأخذهم للهاوية، وعلينا تبصير شباب هذه البلاد وغيرهم بما يدور حولهم من الفتن المهلكة التي باتت تأكل الحرث والنسل، والناظر في أحوال البلاد من حولنا يرى العجب من قتل وتدمير وتشريد وظلم واعتداءات، بسبب غياب الوعي الفكري لدى من يقع في مثل هذه الجرائم العظيمة، وتعلقهم بشبهات زرعها في عقولهم أصحاب المطامع السيئة ويكفي المسلم فخراً أنه يعيش آمنًا مطمئنًا على نفسه وأهله وأولاده وماله، وهذه النعمة لا يمكن الحصول عليها أبدًا في أي بلد من بلاد العالم أجمع .

الشباب هم عماد الأمة، وحصنها المنيع بعد الله تعالى في حفظ البلاد من التيارات الهدَّامة، والشعارات الكاذبة، لذلك فهم يحتاجون إلى فهم الأمور بتبصر وتعقل؛ عن طريق العلماء العاملين الذين يوضحون لهم الطريق، ويحذرونهم من مغبة الانسياق وراء الهوى والحماسة غير

المنضبطة بالشرع الحنيف وما يؤكد أهمية الأمن الفكري هو حماية النشء من الوقوع فيما وقع فيه من سبقهم من الشباب، ويكون ذلك بالتوجيه الهادف عن طريق المؤسسات الدينية والاجتماعية في المجتمع، والتي تقوم بدور كبير في وقاية المجتمع ومن أهم المؤسسات التي تقوم بهذا الشأن، ولها دور وقائي في معالجة مثل هذا الفكر المسجد، والمدرسة، والأندية الثقافية والرياضية، فالخدمات التي تقوم بها مثل هذه الجهات هامة وضرورية كالوعظ والإرشاد، والتوجيه النفسي والسلوكي والاجتماعي والتربوي والتعليمي، والنشاط الرياضي والثقافي، واستغلال أوقات الفراغ عند الشباب وشغلها بما يفيد من أنشطة نافعة للفرد والمجتمع، وهذا لا يكون له تأثير إلا إذا كان القائمين على هذه المؤسسات لهم قدرة وكفاءة للتصدي لمثل هذه الأفكار وتوجيهها التوجيه السليم والذي يعود بالفائدة على الشباب والمجتمع فالوسائل المتاحة من هذه الجهات وغيرها، وأيضًا وسائل الإعلام المختلفة التي تخاطب هذه الفئة الهامة في المجتمع؛ من أجل حفظ فكرهم من الانحراف .

<u>الإعلام وتحقيق الأمن للمجتمع :</u>

هذا العصر يمتاز بأنه عصر الإعلام وتدفق المعلومات وتعدد وسائل الاتصال وتطورها مما يجعل التحكم فيما تبثه من مواد إعلامية وفكرية وثقافية..إلخ أمراً بالغ التعقيد والصعوبة والإعلام أضحى عالماً له فنونه

وصناعته وأسراره وتعقيداته يتوارى خلفها مصالح وهيئات ومنظمات لاتعلم أسرارها وخفاياها إلا من قبل ذوي الشأن وأهل الاختصاص وهو سلاح ذو حدين إن أحسنت استخدامه وصلح القائمين عليه وصلحت نواياهم واستقامت أهدافهم أصبح عاملاً مهماً من عوامل صلاح الفرد والمجتمع بل والأمة يتحدث عن قضاياها ويبث همومها ويحافظ على ثوابتها وينشر فكرها السليم ويغرس قيمها وأعرافها الفاضلة وأخلاقها الحسنة وباختصار فهو في هذه الصورة يحقق مصالح الدين والدنيا والعكس بالعكس

فالإعلام بحكم تنوع شبكاته ووسائله وقنواته وآلياته دخل كل بيت يسمعه ويشاهده غالب الناس إن لم يكن كلهم حتى صعب لدى الكثير التميز بين غثه وسمينه وصالحه وطالحه ونافعة وضاره فهو من أهم الوسائل المؤثرة في تكوين ثقافة المجتمع والأمة ومحاكاة واقعها وبيان توجهها الفكري والاجتماعي والديني والثقافي وبقدر صلاحه وصدقه وحسن مقصده يكون ذا فائدة وصلاح وأداة نفع وتوجيه لاسيما لدى الشباب خاصة في هذا الوقت فلابد إذاً من تأمين فكر الشباب ضد أي شبهة برسم إستراتيجية سديدة سليمة تنبثق من هدي الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم ويحفظ على الناس ضرورياتهم الخمس التي جاءت الشريعة بحفظها (الدين والنفس والمال والعقل والنسل)والإعلام سنداً قوياً للمؤسسات التربوية المختلفة

في الدولة يتأزر ويتعاون معها في الحفاظ على ثوابت هذه الدولة حتى لايحدث ازدواج في العمل أو انفصام فيه فينتج الخلل وتتعدد التوجهات والولاءات إلى الحد الذي يصل إلى الإضرار بالفرد والمجتمع والدولة والحاجة ملحة لوضع ضوابط حازمة للمطبوعات والمطويات والمنشورات التي تطبع وتتداول ومراجعتها مراجعة فكرية دقيقة والتأكد من مدى سلامتها عقدياً ودينياً وثقافياً وتتناسب مع عادات المجتمع وتقاليده الصحيحة وعدم تعارضها مع ثوابت الدين وقيم الوطن .

المناعة الفكرية

عندما يصاب أحدنا بأي نوع من المرض أو الوباء يسرع إلى الطبيب ويتعهد نفسه بأخذ الحيطة والحذر والابتعاد عن مكامن الوباء والالتزام بالإجراءات والوصايا الطبية التي يقدمها له أصحاب الاختصاص ولا ينفك يتناول العقاقير الطبية والتطعيمات الضرورية اللازمة لمثل حالته. ولا غرابة في هذا الفعل فإن الصحة من المهمات لدى الإنسان ولها شأن كبير عنده ويبذل من أجلها كل غال ونفيس ولكن هل فعلا أن الصحة الجسدية أو العضوية تأتي في أول الأولويات وفي مقدمة الإهتمامات لدى الإنسان؟؟ لا عجب أن يهتم الإنسان بحياته وهذه من الضروريات القصوى والاهتمامات العظمى وقد أمرنا بها ودللنا عليها فطرة وشرعاً وعقلاً لكن إذا كان البدن في أوج صحته لكن سيد الأعضاء قلبه ومدير الجسد عقله يغطان في نوم عميق وقد نهشتهما الأمراض وعميا عن

إدراك ما يراد منهما وأثرا على فكر صاحبيهما؛ فهل نقول إن هذا الفرد في أتم صحته وأقصى درجات نشاطه؟ لاشك أن صحة العقل والفكر هي الغاية النهائية التي لابد للإنسان أن يسعى إليها ويبذل من أجلها كل شي، ويبتعد كل البعد عن ما يعكر صفو العقل وما يكدر نقاءه الذهني، وما يشوب مرآته من أوساخ الأفكار ورديء المعتقدات وسيء الخواطر ولهذا كانت غالب آيات القران الكريم تخاطب وتنادي ذلك العضو الأهم في الجسد، وتحث وظائفه المتعددة على إدراك الفهم الصحيح وتأمل الحياة من منظور آخر، والبعد عن سفليات الأمور وعن التفكير السطحي المجرد الغارق في أوحال الماديات، فكانت كثيرا من آيات القران تختم بـ (أفلا يتفكرون - يتدبرون – يعقلون - يتذكرون ... الخ، بل إن الله - عز وجل - أمرنا أن ننظر ونتأمل في حال الأرض ومن عليها، فقال: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ} .